المجلس القومي للشباب
National Council For Youth

٥ الإذاعة التليفزيون

السلسلة الثقافية لطلائع مصر ٥٣ أكتوبر ٢٠٠٨



أحمد عرابى

زعيم الكرامة الوطنية



د. محمد عفيفى

قمم مصرية

قمم مصرية

٥٣

أحمد عرابي

زعيم الكرامة الوطنية



المجلس القومي للشباب

الإدارة المركزية للطلائع

السلسلة الثقافية لطلائع مصر

رئيس مجلس الإدارة

د. محمد صفى الدين خربوش

رئيس التحرير

د. محمد أبو الخير

هيئة الإشراف:

نعمات ساتي

هويدا محي الدين

طلعت توفيق

أميمة عبدالعزيز

لوحات وغلاف:

أحمد شربي

المراسلات

المجلس القومي للشباب

شارع ٢٦ يوليو، ميدان سفنكس

تليفون وفاكس: ٣٣٤٠٦٧٧٦٧

Web: www.alshabab.gov.eg

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

الإذاعة التليفزيون

رئيس مجلس الإدارة

أحمد أنيس

رئيس التحرير

ياسر رزق

مدير التحرير

عبدالناصر عيسوى

تنفيذ

حسام عنتر

أحمد عرابي
زعيم الكرامة الوطنية

د. محمد عفيفي

العدد ٥٣
من السلسلة الثقافية لطلائع مصر
صادر مع مجلة الإذاعة والتليفزيون
١٨ شوال ١٤٢٩هـ - ١٨ أكتوبر ٢٠٠٨

تقـديم

عزيزي القارئ، أُقدِّم لك سيرة أحمد عرابي، هذا الفلاحَ المصري الذي استطاع أن يكون أول مصري يصل إلى أعلى الرُّتَب العسكرية في الجيش، بعد أن كانت هذه الرُّتَب مقصورة على الأتراك والشراكسة.

وبرغم فشل الثورة العرابية ١٨٨٢، سيجد القارئ في نهاية الكتاب أن ثورة يوليو ١٩٥٢ تستلهم روح الثورة العرابية، وروح أحمد عرابي.

المؤلف

مصر قبل الثورة العرابية

لم تكن الثورة العرابية وليدة الصدفة، بل كانت نتيجة ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية مَرَّت بها مصر في عهدَيْ سعيد وإسماعيل، وساعد على قيام الثورة ظهور شخص مثل عرابي، لذا يجدر بنا- قبل الحديث عن عرابي وثورته- أن نتعرف على تلك الظروف.

١- الحياة الاقتصادية

- الزارعة

اهتمت الحكومة في عهد سعيد بتطهير ترعة المحمودية؛ كما صدر في عهده «اللائحة السعيدية» التي أصبحت أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان في مصر؛ وأُلغيَ نظام احتكار الحاصلات الزراعية وصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته، وخفف عن الأهالي عبء الضرائب.

أما في عهد إسماعيل فقد شُق كثير من الترع في الوجه البحري، التي يبلغ عددها نحو ١١٢ وأهمها ترعة الإبراهيمية وترعة الإسماعيلية؛ كما أُقيمت قناطر التقسيم على ترعة الإبراهيمية وتُعد هذه القناطر من أعظم قناطر الري، وتم إصلاح القناطر الخيرية في عهده.

كما تقرر إنشاء مجالس تفتيش الزراعة لبحث الوسائل الكفيلة بتحسين الزراعة وإنمائها وتوزيع مياه الري.

وعُنيَ إسماعيل بالتوسع في زراعة القطن عندما ارتفعت أسعاره أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، وجلب من أوربا العدد الوفير من آلات الري لتوفير المياه وتحسين طرق الري، وأمدت الحكومة المزارعين بالبذور التي يحتاجون إليها. ووجه إسماعيل اهتمامه أيضًا إلى الإكثار من زرع قصب السكر وخاصةً في أملاكه بالوجه القبلي، وازدادت عنايته به بعد أن تراجعت أسعار القطن وهبطت إلى مستواها العادي عقب انتهاء

الحرب الأمريكية ونجح في أن تجد البلاد محصولاً آخر بجانب محصول القطن.

وأنشأ إسماعيل مدرسة زراعة الخضروات لدراسة النباتات التي يكون إدخالها نافعًا في القطر المصري، وفيها أُجريت عدة تجارب زراعية أدت إلى أقلمة بعض النباتات الأجنبية ومنها الكتان البلجيكي والعنب اليوناني، كما تحسنت زراعة بعض النباتات الأهلية.

وكان من جراء تلك الجهود ازدياد مساحة الأطيان الزراعية وزيادة محصولها، فقد كانت مساحة الأراضي المزروعة في أواخر عهد محمد عليّ ٣,٨٥٦٠٠٠ فدان فبلغت في أواخر عهد إسماعيل ٤,٨١٠,٠٠٠ فدان، أي أنها زادت في هذا العهد بمقدار مليون فدان تقريبًا، كما ازدادت الثروة الحيوانية وتقدم إنتاج الحيوانات والدواجن ودود القز.

– الصناعة

انتعشت بعض الصناعات في عهد إسماعيل بعد أن أُغلقت معظم المصانع المصرية في عهد عباس الأول،

وكانت من أهم الصناعات التي انتعشت أيام إسماعيل الصناعات الحربية وبخاصةً بعد أن صدر فرمان ١٨٦٦، وأعطى لمصر حق زيادة جيشها إلى ٣٠,٠٠٠ بدلاً من ١٨,٠٠٠، ثم فرمان ١٨٧٣ بشأن حق بناء السفن الحربية.

ولذا أُحْيَت الحكومة ترسانة الإسكندرية لتجديد الأسطول، كما أنشأت الحكومة حوضًا عائمًا من الحديد بميناء الإسكندرية لإصلاح السفن؛ وأُعيِّد تنظيم مصنع الحوض المرصود لصب المدافع وصنع الأدوات الحربية؛ وتم إصلاح معمل الأسلحة بالإسكندرية ومصانع البارود بالقاهرة.

أما الصناعات التجهيزية فقد تأثرت باتساع زراعة القطن المصري خلال الحرب الأهلية الأمريكية، كما ذكرنا من قبل، فزاد عدد المحالج التي تُدار آلاتها بالبخار، غير أن مساحة القطن المصري نقصت بعد انتهاء الحرب الأمريكية، فقلَّت صادراته؛ مما أدَّى إلى وقف العمل في بعض تلك المحالج؛ كما حدث اهتمام

نسبي بصناعة استخراج الزيوت ودبغ الجلود وطحن الحبوب.

وكما تأثرت الصناعات التحويلية- وأهمها صناعة السكر- بالاهتمام بزراعة القطن، فقد أدَّى الاتساع في زراعة القطن إلى إهمال زراعة القصب وغيره من الحاصلات أثناء الحرب الأمريكية، وعندما انتهت الحرب اعتـنى إسماعيل بصناعة السكر وأنشأ معامل تكرير على الطراز الحديث، وبلغ عدد مصانع السكر التي أُنشِّئت حتى نهاية حكم إسماعيل ٦٤ مصنعًا، تكلفت حوالي ستة ملايين جنيه، وبلغ إنتاج مصر من السكر ما يزيد على ١,٥٠٠,٠٠٠ قنطار سنة ١٨٧٢.

وانتعشت صناعة الغزل والنسيج والطرابيش، كما أُنشِّئت مطابع حديثة مثل مطبعة جمعية المعارف ومطبعة وادي النيل، وواكب ذلك الاهتمام بصناعة الورق فأُنشئ سنة ١٨٧٠ مصنع للورق بالقرب من مطبعة بولاق.

- التجارة

مثَّل القطن أهم الصادرات في تجارة مصر الخارجية في عهد سعيد، وتلاه الحبوب من قمح وذرة وفول وشعير، ثم الصمغ والْبُنّ والبلح والعاج. أما عن الواردات فقد زادت واتسع مداها.

وبالنسبة للتجارة الداخلية في عهد سعيد فقد تقرَّر تحصيل ضرائب الأطيان نقدًا وإبطال الشوَن، فأصبح الفلاح حُرًّا في بيع محصوله؛ كما أُلغيَت الاحتكارات التي فرضها عباس الأول، وكذلك أُلغيت عوائد الدخولية سنة ١٨٥٤، وبذلك أصبحت التجارة الداخلية حرة من كل قيد.

وفي عهده احتج تجار القطن على بيعه بالمزايدة في حلقة الزقازيق، وطالبوا بإبطالها والعودة إلى حرية الشراء من الفلاحين مباشرةً.

أما عهد الخديو إسماعيل فقد انتعشت فيه تجارة مصر الخارجية من صادرات وواردات أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، وبالطبع كان أهم محصول في تلك التجارة

هو القطن، بعد أن حُرِمت أوربا من القطن الأمريكي طوال سنوات الحرب فاتجه أصحاب مصانع الغزل والنسيج إلى البلاد الأخرى التي تُنتج القطن، واشتدَّ الطلب على القطن المصري من البلاد الصناعية وبخاصة إنجلترا، وارتفع ثمن القطن في مصر فتوسعت البلاد في زراعته وتصديره. ويُقابل الزيادة في صادرات مصر من القطن وبذرته في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية نقص في صادراتها من الحبوب والسكر، وذلك لأن مساحة القطن زادت على حساب مساحات الحبوب والقصب فنقصت صادرات الحبوب حتى كادت تنعدم.

وفي مجال التجارة الداخلية في عهد إسماعيل عادت عوائد الدخولية، إذ فرضت الحكومة عوائد دخولية بنسبة ٩٪ على الخضر والفاكهة الداخلة في القاهرة والإسكندرية، كذلك فرضتها على الحبوب والعسل والسمن والبوص والجلود والكتان والصوف، وقد مثَّل هذا عائقًا أمام التجارة الداخلية.

وقد نظمت الحكومة في عهد إسماعيل طريقة بيع القطن فأنشأت في البنادر بالوجه البحري والوجه

القبلي حلقات القطن في أماكن تابعة لها وعيَّنت فيها حُرَّاسًا وموظفين.

وكانت القاهرة في عهد إسماعيل مركزًا لتجارة عدد كبير من السلع الواردة من مكة والسودان والحبشة مثل العاج واللؤلؤ والصمغ والبُن.

أما في عهد توفيق فقد أُلغيت عوائد الدخولية، وفي عهد عباس الثاني لم تكن للحكومة رقابة على أسواق القرى إلا فيما يختص بالأمن والصحة العامة.

٢- الحياة الثقافية

كان من المتوقع في عهد سعيد أنه نتيجة لتأثره بالحضارة الغربية سوف يُولي اهتمامًا كبيرًا بالتعليم، غير أن ذلك لم يحدث، فقد بدأ حكمه بإلغاء ديوان المدارس، والمدارس التي بقيت في عهد عباس، واستعاض عنها بمدرسة حربية بالقلعة وجعل رفاعة الطهطاوي ناظرًا لها؛ ومدرسة المهندسخانة بالقلعة السعيدية التي أنشأها بالقناطر الخيرية؛ أما مدرسة المفروزة فقد نقلها

إلى الإسكندرية باسم المدرسة الحربية؛ وأعاد افتتاح مدرستي الطب والولادة بعد أن كان ألغاهما في أوائل حكمه؛ وكذلك افتتح مدرسة بحرية بالإسكندرية، ولكن أكثر هذه المدارس أُلغي في عهده. وانتهى حكمه وليس بمصر سوى المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية، ومدرسة الطب بالقاهرة. وفي الجانب المقابل اهتم سعيد بالمدارس التي أنشأتها الجاليات الأجنبية والإرساليات التبشيرية وأغدق عليها المال والعقارات.

وفي عهد إسماعيل نال التعليم والنهضة العلمية اهتمامًا كبيرًا، فقد تولّى الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها محمد عليّ مُغلقة، فأعاد تأليف ديوان المدارس، وأسس عدة مدارس عُليا كان لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكرية، وكانت أهم تلك المدارس مدرسة المهندسخانة والتي عُنيَت بدراسة الري والعمارة وأُنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦ بسراي الزعفران، ثم نُقلت سنة ١٨٦٨ إلى سراي درب الجماميز ثم إلى الجيزة.

وكانت مدرسة الحقوق من أعظم المعاهد العلمية التي أسسها إسماعيل وأُنشئت سنة ١٨٦٨، وكان اسمها في أول الأمر «الإدارة والألسن»، وقد حلت محل مدرسة الألسن التي أُقفلت في عهد عباس وسُميَّت «مدرسة الحقوق» منذ سنة ١٨٨٦، وكان أول ناظر لها هو المسيو فيدال باشا أحد علماء فرنسا القانونيين، وظل يتولى نظارتها أربعًا وعشرين سنة، وتخرَّج من هذه المدرسة معظم رجال القانون النوابغ المصريين.

أما مدرسة دار العلوم فقد أُسِّست سنة ١٨٧٢ وكان الغرض من إنشائها تخريج أساتذة اللغة العربية للمدارس الإبتدائية والثانوية، واخْتِيرَ طلبتُها من نوابغ تلاميذ الأزهر، وكان لها الفضل في نهضة اللغة والآداب العربية في مصر، واشتمل برنامج التعليم فيها على العلوم التي لا تُدرَّس في الأزهر كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ والخط مع اتقان علوم الأزهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه، وكان التعليم فيها مجانيًا مع دفع مرتب شهري للتلاميذ.

ويُذكر لإسماعيل أنه بدأ إنشاء مدارس البنات، فلم تكن هناك قبل ذلك مدرسة للبنات سوى مدرسة الـولادة، ولم يكن يتعلم فيها- في الغالب- سوى البنات السودانيات والحبشيات. ففي سنة ١٨٧٣ أُسِّست مدرسة السيوفية للبنات، وقد أنشأتها زوجة الخديو إسماعيل، وكان بها عند افتتاحها نحو مائتي تلميذة وتضاعف عددُهن في العام التالي، وكان التعليم فيها مجانيًّا، فضلاً عن الإنفاق على مأكلهنَّ وملبسهنَّ، وكن يتلقَّين في المدرسة علوم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز.

وأُسِّست مدرسة أخـرى للبنات في القاهرة سنة ١٨٧٤.

كما أنشأ إسماعيل عـددًا من المدارس الصناعية مثل مدرسة الفنون والصنائع، وكانت تُعرف بمدرسة «العمليات» وتأسست سنة ١٨٦٨ لتخريج الصُّناع الفنيين، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية (القطارات والبواخر)، والمهندسون في مجال صُنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية.

كما تأسست مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨، ومدرسة النقاشين وعمليات المرور.

كما أُنشئت دار الكتب في عهد إسماعيل سنة ١٨٧٠، وكانت بدايات إنشائها ترجع إلى عهد محمد عليّ فقد أنشأ مستودعًا لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم خلف المسجد الحسيني.

ولما تولَّى إسماعيل الحكم أضاف إليها نحو ألفي مجلد من المحفوظات العربية والفارسية حصل عليها من شركة حسن باشا المانسترلي، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب.

ويذكر عليّ باشا مبارك في الخطط التوفيقية أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع إلى الخديو إسماعيل، حيث رغب في إنشاء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة في مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفي المساجد، وتم إنشاء دار الكتب في سراي درب الجماميز.

وكان إسماعيل يحلم بإنشاء كتبخانة خديوية في مصر تُضاهي كتبخانة باريس، لذا فقد اشترى مجموعة من

الكتب القيمة من الأمير مصطفى فاضل وأهداها إلى دار الكتب.

وأنفق إسماعيل على الكتبخانة من ميزانية المدارس، وفتح أبوابها لطلاب العلوم والمعارف، مما سهّل لهم الاطلاع على مقتنياتها من كتب ومؤلفات ومخطوطات.

كما تميّز عصر إسماعيل بظهور الجمعيات العلمية مثل المجمع العلمي الذي أنشأه نابليون في مصر سنة ١٧٩٨، فقد أُعيد إنشاؤه في الإسكندرية في عهد سعيد، واستمر قائمًا في عهد إسماعيل لنشر البحوث العلمية، وتحوّل اسمه إلى مجلس المعارف المصري.

كما تأسست جمعية المعارف سنة ١٨٦٨، وهي أول جمعية علمية ظهرت في مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر، وتأسست الجمعية الجغرافية الخديوية سنة ١٨٧٥ للعناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها.

وأُنشِئَتْ في الإسكندرية سنة ١٨٧٨ الجمعية الخيرية الإسلامية للعناية بفتح المدارس الحرَّة لتعليم البنين والبنات وإعانة الفقراء.

وفي مجال الصحافة لم تظهر صحفٌ جديدة في عهدي عباس وسعيد؛ كواحد من مظاهر الجمود التي أصابت النهضة العلمية في تلك الفترة.

وقد نهض بالصحافة في ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين، وثمة عامل آخَر كان له الأثر البالغ في نهضة الصحافة، والنهضة العلمية والأدبية بوجهٍ عام، ألا وهو تعضيد الخديو إسماعيل لها، ومساعداته الأدبية والمالية للقائمين عليها.

وشهد عهد إسماعيل استمرار وانتظام صدور جريدة «الوقائع المصرية»، والتي تعتبر سجلاًّ يُصوِّر لنا ملامح الحياة السياسية والاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل، كما أنها مرجع رسمي لا غنى عنه لكل دارس لتاريخ مصر الحديث.

وإلى جانب «الوقائع» صدرت عدة صحف أخرى علمية وسياسية، منها على سبيل المثال: مجلة «اليعسوب الطبية»؛ مجلة «روضة المدارس» التي عُنيت بإحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة؛ صحيفة «وادي النيل»؛ جريدة «الوطن»؛ جريدة «الأهرام»؛ «مرآة الأحوال»؛ «أبو نضارة»، وغيرها من الصحف التي لعبت دورًا مهمًّا فيما بعد في الثورة العرابية.

٣- سياسة مصر الخارجية في عهد إسماعيل

كانت سياسة إسماعيل الخارجية في الجانب المتعلق بالدولة العثمانية تتلخص في توسيع نطاق استقلال مصر وكسب أكثر ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية، حتى يصل بالبلاد إلى الاستقلال التام. كان هذا في الوقت الذي تسبب فيه بسياسته المالية الخاطئة إلى تطويق البلاد بسلاسل التدخل الأوربي.

وربما يرجع ذلك إلى نزعة إسماعيل الأوربية التي جعلته يثق بأوربا ثقة عمياء، ولا يفطن إلى أطماعها الاستعمارية، ففتح أبـواب البلاد على مصراعيها للتدخل الأجنبي وسمح للأوربيين أن يتغلغلوا في مرافقها ويتولوا المناصب والمراكز الرفيعة في حكومتها، وبلغت به الثقة في سلامة نيتهم حدًّا جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من البيوت المالية الأجنبية حتى صار للأجانب في عهده نفوذ مالي وسياسي لم يكن لهم من قبل.

أ- سياسة إسماعيل تجاه الدولة العثمانية

جعل إسماعيل نُصب عينيه تحرير مصر من السيادة التركية التي فرضتها عليها معاهدة لندن ١٨٤٠، وفرمانات ١٨٤١، أي أنه أكمل العمل الذي بدأه محمد عليّ، ولكن الفرق بينه وبين جده أن محمد عليّ كسب لمصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصري، أما إسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشوة ببذلها لرجال الآستانة ليحصل على الفرمانات التي وسَّع بها نطاق الاستقلال. وكان ذلك من الأسباب التي دعت إسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية، فكانت من هذه الناحية من العوامل التي أدَّت إلى تصدُّع بناء الاستقلال الحقيقي. وقد بذل إسماعيل تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على الامتيازات التي نالها، إذ لم تكن حكومة الآستانة تُصدِر فرمانًا إلا في مقابل الأموال الطائلة من الرشاوى والهدايا التي يُقدِّمها إسماعيل لرجال الآستانة على اختلاف مراتبهم، ولا يُستثنى منهم السلطان نفسه، والصدور العظام، فبلغ

مجموع هذه الأمـوال طوال حكمه نحو اثنى عشر مليونًا من الجنيهات.

بدأ إسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان عبد العزيز، ورجال حكومته، فلما تولى الحكم ذهب إلى الآستانة ليُقدِّم فروض الولاء للسلطان، وانتهز هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا، وتودد إلى السلطان ودعاه لزيارة مصر، فوعده بقبول الدعوة.

وبالفعل حضر السلطان عبد العزيز إلى مصر، وبذلك كان هو السلطان العثماني الوحيد الذي جاء إلى مصر زائرًا بعد السلطان سليم الذي دخلها فاتحًا، فكانت هذه الزيارة تكريمًا كبيرًا لإسماعيل وتعظيمًا لشأنه. واستغل إسماعيل هذه الفرصة ليكسب من تركيا حقوقًا ومزايا جديدة، واستخدم- إلى جانب ذلك- المال الذي بذله بسخاء، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف، كما منح الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده ستين ألف جنيه رشوة ليتخذ منه عونًا في مساعيه لدى الحكومة التركية.

وكانت أول ثمار هذه المساعي هي صدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦، الذي منح إسماعيل حق انتقال الحكم من بعده لأكبر أبنائه، وإمكانية زيادة عدد الجيش المصري حتى ثلاثين ألف جندي، وإقرار حق مصر في ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطنة، وكذا حقها في منح الرتب المدنية حتى الرتبة الثانية.

وتبع هذا الفرمان فرمان آخر في ١٥ يونيو ١٨٦٦ بترتيب نظام الوصاية على من يتولى حكم مصر إذا كان قاصرًا.

وفي عام ١٨٦٧ صدر فرمان آخر بمنح إسماعيل وخلفائه من بعده لقب «خديو» بعد أن كان «واليا»، كما أقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها في إدارة شئونها الداخلية والمالية، وحقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب، وشئون الضبط للجاليات الأجنبية.

ب- سياسة إسماعيل تجاه الدول الأوربية

تأثر إسماعيل بتربيته الفرنسية والسنوات التي قضاها في باريس، ونشأت صداقة بينه وبين الإمبراطور نابليون الثالث. ونتج عن ذلك ازدياد النفوذ الفرنسي في مصر، والذي يتجلى- بأوضح صوره- في قبول إسماعيل تدخل الإمبراطور نابليون الثالث لحسم الخلاف الذي نشب بين إسماعيل وشركة قناة السويس في بدايات حكمه، ورضى أن يجعله حكمًا بينهما مع أنه يعلم بالبداهة أن إمبراطور فرنسا لا يمكن أن يكون حكمًا عادلاً في مثل هذا الخلاف، وأن حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة للشركة الفرنسية. وبالفعل فقد أصدر نابليون الثالث حكمه بإلزام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة بلغت عدة ملايين من الجنيهات.

كما يظهر هذا النفوذ أيضًا في استخدام إسماعيل لطائفة من الفرنسيين في كثير من معاملاته المالية وقروضه، وإسناد كثير من مشروعات العمران إلى إخصائيين فرنسيين.

وقد بلغ هذا النفوذ مداه في حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، فالقناة في ذاتها عملٌ فرنسي؛ وفاتحها فرديناند دليسبس يُمثِّل كفاءة فرنسا المالية والهندسية؛ وكانت أوجيني إمبراطورة فرنسا تُمثِّل الدولة الفرنسية في إبان مجدها وأوج عزها، وهي التي رأست حفلات الافتتاح مُتقدِّمة ملوك أوربا وأمراءها وأقطابها في السياسة والعلوم والفنون، فكانت هذه الحفلات الفخمة إيذانًا بما بلغه النفوذ الفرنسي في مصر من القوة وسمو المنزلة.

غير أن هذا النفوذ أخذ في الاضمحلال عقب الحرب السبعينية (١٨٧٠- ١٨٧١)، إذ إن انتصار الألمان في هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية في أوربا والشرق، وكان من أولى نتائج هذه الحرب سقوط نابليون الثالث صديق إسماعيل، الذي كان يعتمد عليه في مهمات الأمور، ومن ثم أخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل في مصر.

وكان إضعاف نفوذ فرنسا في مصر قد مهَّد لإنجلترا الطريق لتكون صاحبة النفوذ الأول، ومكنها من

الانفراد بالتدخل في شئون مصر، حتى انتهى الأمر بالاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢.

بعد هذه النظرة السريعة على أحوال مصر قبل الثورة العرابية، نترك الآن أحمد عرابي، زعيم الثورة، يُحدثنا عن نشأته وتكوينه.

عرابي يتحدث عن نفسه

أنا السيد أحمد عرابي بن السيد محمد عرابي بن السيد محمد وافي وينتهي نسبي إلى الإمام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بن الإمام عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه.

كان والدي السيد محمد عرابي شيخًا جليلاً رئيسًا على عشيرته عَالِمًا ورعًا موصوفًا بالعفة والأمانة. وكانت ولادتي في ٧ صفر سنة ١٢٥٧هـ/ ٣١ مارس ١٨٤١م ببلدتنا التي تدعى «هَرِيَّه رَزْنة» بمديرية- محافظة- الشرقية، بضواحي مدينة «بوبَسط» المشهورة الآن بتل بسط، الواقعة شرقي مدينة الزقازيق. وتعلَّمتُ القرآن الشريف وبعض العلوم الدينية في المكتب الذي أنشأه والدي وفي الجامع الأزهر. ثم توفى والدي في ٢١ شعبان سنة ١٢٦٤هـ (بالكوليرا) أي الهواء الأصفر بالغًا من العمر ٦٣ سنة، فغدوت يتيمًا في الثامنة من عمري.

وكانت تربيتي في حجر والدتي وتحت رعاية أخي الأكبر السيد محمد عرابي إلى أن تولى المرحوم سعيد باشا ولاية مصر في ١٤ شوال سنة ١٢٧٠هـ حيث أصدر أمره بانتظام أولاد عُمَد البلاد ومشايخها في سلك العسكرية حيث كان طلبي وإلحاقي بالعسكرية في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ هـ.

عرابي في العسكرية

في التاريخ المذكور آنفًا دخلتُ العسكرية، وكان ذلك في عهد محمد سعيد باشا الذي كان محبًّا لتقدم المصريين. فترقيت بالامتحانات أمام رجال العسكرية إلى رتبة ملازم ثاني في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧٥هـ، وإلى رتبة ملازم أول في ١٧ جماد الثاني سنة ١٢٧٥هـ، وإلى رتبة يوزباشي في ١٣ شعبان من السنة المذكورة، وإلى رتبة ضاغقولغاسي في ٢٣ ربيع آخر سنة ١٢٧٦هـ، وإلى رتبة بكباشي في ١٥ شعبان من السنة المذكورة، وإلى



احمد عرابى بالزى العسكرى

رتبة قائمقام بك في ٢٤ صفر سنة ١٢٧٧، وهي الرتبة التي لم يصل إليها أحد قبلي من العنصر المصري. ثم ترقيت بعد ذلك في عهد محمد توفيق باشا إلى رتبة أميرالاي في رجب سنة ١٢٩٦هـ وإلى رتبة اللواء في ربيع آخر سنة ١٢٩٩.

وكانت مدة الأمير سعيد باشا كلها أسفارًا وتمرينات حربية، كما سعدت بالتوجه في معيته إلى المدينة المنورة لزيارة النبي صلى الله عليه وعلى آله.

أسعد أيامي

مما تقدم يعلم أني دخلت العسكرية نفرًا بسيطًا في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١هـ، وترقيت بسرعة غريبة، جزاء ما بذلت من جهد عنيف، حتى نلتُ رتبة قائمقام الآلاي في ٢٤ صفر الخير سنة ١٢٧٧هـ. وكانت تلك المدة عبارة عن ستة أعوام إلا عشرين يومًا هي أيام سعودي وخلوّ فكري من الأكدار الدنيوية، فقد كنتُ فيها عزيزًا مكرمًا عند حضرة محمد سعيد باشا، وكثيرًا ما

كان يشركني معه في ترتيب المناورات الحربية ويُنيبني عنه في تلقينها إلى أكابر الضباط بحضرته، وعلى مسمع منه رحمه الله تعالى. ولشدة إعجابه بي أهداني (تاريخ نابليون بونابرت باللغة العربية طبع بيروت) وهو بادي الغيظ على أن تمكن الفرنساويون من التغلب على البلاد المصرية، والتحريض على وجوب حفظ الوطن من طمع الأجانب.

ولما طالعتُ ذلك الكتاب شعرتُ بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية، فكان ذلك سببًا لمطالعتي كثيرًا من التواريخ العربية.

الظلم لعرابي

وبعد وفاة المرحوم محمد سعيد باشا في ٢٧ رجب ١٢٧٩هـ تولى إسماعيل باشا ولاية مصر، فأمر بجمع العساكر وترتيب الآلايات وكان ترتيبي قائمقامًا على الآلاي البيادة السادس، ولم يكن بهذه الرتبة من العنصر الوطني بالآلايات غيري. وعندما تكامل حشدُ

العساكر اجتمعت الآلايات البيادة والسواري في ميدان (طره) بسفح جبل المقطم وأقيمت تمرينات حربية حضرها الخديو إسماعيل وجميع رؤساء العسكرية. ولشد ما أدخلت السرور على الخديو حتى دعا جميع الضباط العظام من رتبة البكباشي فما فوقها إلى مأدبة فخمة فوق ظهر سفينته البخارية، وبعد الفراغ من تناول الطعام أعلن الخديو سروره وشكره لضباط الجيش على ما أبدوه من النشاط وحسن الترتيب في أثناء التمرينات الحربية. وأمر لكل واحد من الباشوات بخمسمائة فدان، ولكل من أمراء الآلايات بمائتي فدان، ولكل واحد من القائم مقامات بمائة وخمسين فدانًا من زيادة المساحة التي توجد في بلاد مديرتي الغربية والمنوفية.

غير أن طريقة توزيع تلك الأراضي كان فيها ظلم شديد لفلاّحي تلك الجهات وتعدٍّ على أراضيهم لصالح العسكريين من أصحاب الرتب المختلفة. وقد حماني الله من الوقوع في شرك هذه المآثم على غير إرادة مني، وذلك لوشاية أحد أمراء الألوية الجراكسة بي لدى ناظر

الجهادية بأني لا أنقاد لأوامره ولا أحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية، وطلب منه وقف تسليمي الأطيان المُنعم بها عليّ لحين تحقيق ما افتراه من الكذب. فعرض ناظر الجهادية الأمر على الخديو مشافهة، وصدر بناء على ذلك أمر المعية لمديرية الغربية بعدم تسليمي تلك الأطيان حتى يصدر لها أمر آخر.

ثم أمر ناظر الجهادية بتحقيق ما نُسب إليّ، فألَّف لذلك مجلسًا عسكريًّا من كبار الضباط الجركس والترك، وحكم المجلس بحبسي ٢١ يومًا. فاستأنفت الحكم وطلبت إحالتي إلى المجلس العسكري الأعلى الذي تقرَّر فيه إلغاء هذا الحكم وحفظ الأوراق لفساد التهمة وثبوت تزويرها.

وهنا وقع الخلاف بين ناظر الجهادية «الرومي» التركي وبين رئيس المجلس العسكري الأعلى «الأرناؤودي» الألباني بسبب حكم هذا المجلس بإلغاء حكم المجلس الإبتدائي، وكان ناظر الجهادية يريد تأييد الحكم الإبتدائي، فسعى لدى الخديو في رَفتي من الآلاي وتم له ما أراد.

خلال الفترة التي قضاها عرابي مفصولاً من الجيش، والتي استمرت ثلاث سنوات دون مرتب، أخذ يتردد على الجامع الأزهر ليتعلم القرآن الكريم والحديث، كما قرأ العديد من كتب التاريخ، تاريخ مصر وغيرها، مما كان له أكبر الأثر في تشكيل وجدانه وعقليته.

ويصف عرابي مشاعره قائلا: ولما كان ذلك الرفت بطريقة استبدادية ظالمة شكوت أمري إلى الخديو إسماعيل باشا والتمستُ طلب أوراق القضية وفحصها بديوان المعية وإنصافي بوجه العدل. وبعد ثلاث سنوات وفي ربيع أول ١٢٨٣هـ كتبت عريضة استرحام ثانية للخديو، فصدرت إرادة سنية- أمر خديوي- مآلها أن العرضحال المُقدَّم مني عُرض على الخديو وأنه عفا عني، وبناءً على ذلك صدر أمره باستخدامي عند ظهور خدمة مناسبة.

وبعدها تنقلت في الوظائف الملكية في المديريات المختلفة، وفي سنة ١٢٨٤هـ أُحيل إلى عهدتي إنجاز بناء كوبري قشيشه العظيم على خط السكة الحديدية قبلي

الواسطى؛ وكوبري أطواب على فرع الفيوم ثم السكة الحديدية من المنيا إلى بندر مَلَّوي. وبعد إتمام تلك الأعمال المهمة على أكمل وجه مع مراعاة الاقتصاد في النفقات أقمتُ وليمة من مالي الخاص دعوتُ إليها رؤساء مصلحة السكة الحديدية ورؤساء الهندسة والعمال ورجال مديرية بني سويف؛ احتفالاً بأول قطار يمرّ على الكوبري المذكور، وكوفئتُ على تلك الأعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى.

وفي أوائل سنة ١٢٨٧هـ عُيِّن قاسم باشا رسمي ناظر الدائرة الخاصة ناظرًا للجهادية، وكان يعرف قدر أعمالي واقتداري مدة إنشاء الكباري السابق ذكرها، فطلبني وكلفني بالرجوع إلى خدمة الجهادية، فأجبته إلى ذلك وترتبت قائمقام في الإسكندرية سنة ١٨٧٢م.

مكث عرابي في الإسكندرية نحو سنتين وتولى رئاسة بعض آلايات المشاة بها، ثم انتقل بآلايه إلى رشيد في ١٨٧٤م، ومن هناك بدأ دور عرابي ودعوته الوطنية يتبلوران، حيث أخذ يجمع حوله الضباط المصريين

ويتباحث معهم في الظلم الواقع عليهم من جراء قصر الترقيات على الضباط الأتراك والجراكسة وحدهم دون المصريين. لذلك فهناك بعض المؤرخين يعتبرون هذا العام ١٨٧٤ هو البداية الحقيقية لدعوة عرابي الوطنية ومطالبته بالمساواة بين المصريين وغيرهم من الأجناس الأخرى.

وفي تلك الفترة تم تعيين الأمير حسين كامل باشا ابن الخديو إسماعيل ناظرًا للحربية، وتم إعداد فرقتين جديدتين في الجيش، وتمت ترقية بعض الضباط استعدادًا للحملة الحبشية، لكن عرابي لم يكن من ضمن هؤلاء الضباط، وتعلل له الأمير حسين كامل بأن سبب تأخير ترقيته هو أن والده «الخديو إسماعيل» يرى أن عرابي من «رجال سعيد باشا»، وطلب منه ألا ييأس وأنه سيبذل أقصى جهده لترقيته ضمن الدفعة الجديدة من الضباط.

غير أن هذا الوعد لم يُنفَّذ على الرغم من خلو الآلاي الذي يديره عرابي من رتبة الأميرآلاي، وقيام عرابي بمهام تلك الرتبة على خير وجه.

وفي تلك الفترة تم انتداب عرابي لترتيب عساكر من أهالي القلاع الحجازية المحالة إدارتها على الحكومة المصرية للمحافظة عليها بالنيابة عن الدولة العلية، فسافر إلى قلعة نخل في سبتمبر ١٨٧٥، ورتب العساكر اللازمة لها، ثم أنشأ بها مكتبًا لتعليم الأطفال، وعهد به لوكيل القلعة وفقيه البلد، ثم سافر إلى قلاع العقبة، ثم المويلح، ثم ظبا، وانتهى بقلعة الوجه، ورتبهما على غرار ما فعله بقلعة نخل، ثم عاد إلى القاهرة بعد ٤٥ يومًا أنجز خلالها تلك المأمورية على أكمل وجه، وحده دون مساعدة ولا مكافأة، بل أنه تكفل بمصاريفه ومصاريف خدمه خلال تلك المدة من ماله الخاص، حيث إن الحكومة كانت آنذاك لا تعطي رجال العسكرية نفقات السفر كما كانت تفعل مع رجال الملكية.

وبعد عودته للقاهرة تم تعيينه في الحملة الحبشية ضمن خطوط الإمداد والتموين، فذهب إلى مصوّع كمأمور حملة الجيش، وانتهت تلك الحرب بهزيمة الجيش المصري وعقد صلح مع ملك الحبشة.

وكان لهذه الحملة وفشلها أثر كبير في نفس عرابي وازدياد سخطه على الضباط الجراكسة، وتقاسم معه هذا الشعور الكثير من الضباط المصريين الذين شاركوا في تلك الحملة. وكان نتيجة ذلك تأسيس هؤلاء الضباط بعد عودتهم للقاهرة جمعية سرية باسم «مصر الفتاة» ضمت مؤسسها عليّ الروبي وعلى فهمى وأحمد عرابي، بالإضافة لبعض الطلبة والأدباء، وكانت هذه الجمعية تهدف للتخلص من الطبقة الجركسية التركية المتحكمة في الجيش؛ وفتح باب الترقي أمام المصريين، وكانت جريدة «أبو نضارة» التي أنشأها يعقوب صنوع هي لسان حال تلك الجمعية.

شهدت تلك الفترة قيام وزارة نوبار بإنقاص عدد الجيش توفيرًا للنفقات، فقامت بتسريح عدد كبير من الجنود وأحالت نحو ٢٥٠٠ ضابط للاستيداع، وكان من بينهم أحمد عرابي الذي كان موجودًا وقتها برشيد، فصدرت إليه الأوامر بالعودة للقاهرة وتسليم عهدته

من الأسلحة والمهمات وتسريح الجنود الموجودين تحت إمرته، وبالفعل نفذ عرابي هذه الأوامر.

وكان ردُّ الضباط المحالين للاستيداع عنيفًا، إذ قاموا بمظاهرة كبيرة في ١٨ فبراير ١٨٧٩ توجهت لوزارة المالية، ولما علم إسماعيل بأمر هذه المظاهرة توجه لوزارة المالية وهدأ الضباط، وطلب منهم الانصراف، فرفضوا حتى تُجاب مطالبهم، وتم تبادل إطلاق النار بين المتظاهرين وبين حرس الخديو، وانتهى الأمر بالقبض على زعماء تلك المظاهرة، وتم إسقاط وزارة نوبار.

وعلى الرغم من عدم اشتراك عرابي في هذه المظاهرة فقد تم توجيه الاتهام إليه ومثل أمام رئيس التشريفات واستجوبه بهذا الخصوص، ونفى عرابي عن نفسه هذه التهمة، وانتهى التحقيق على هذا النحو دون توقيع أي عقوبة على عرابي. وتبع ذلك اجتماع الخديو إسماعيل مع كبار الضباط في سراي عابدين، ومن بينهم عرابي، الذي عينه إسماعيل «ياوران» بمعيته، ولم يمكث في هذه

الوظيفة سوى أسبوع ثم تم تعيينه قائدًا للآلاي الرابع المستجد.

وعلى هذا النحو تعرض عرابي لظلمٍ كبير في مدة حكم إسماعيل، فظل نحو عشرين عامًا دون ترقية، مع تعدد مرات فصله من الجيش.

مصر للمصريين

كانت تختمر في مصر بوادر ثورة وطنية ضد التسلط الداخلي، وأيضًا ضد التدخل الأجنبي. وبدأت بواكير الوعي القومي تختمر في أرجاء مصر، وظهر للوجود لأول مرة شعار «مصر للمصريين»، هذا الشعار الذي سيصبح بحق شعار الثورة المصرية المعروفة بالثورة العرابية.

وساعدت عدة عوامل على اختمار فكرة الثورة، لعل أهمها ظهور الصحافة الوطنية التي أصبحت- بحق- لسان حال الثورة. يُضاف إلى ذلك ظهور الزعيم الكبير «جمال الدين الأفغاني»، الذي أتى إلى مصر داعيًا إلى أن يتمكن المجتمع الإسلامي من اللحاق بأمم العالم الحديث.

وكان الأفغاني مُدركًا لأهمية مكانة مصر، فهي تمتلك الماضي العريق فضلاً عن الحاضر المُبشِّر بالخير.

وساعدت الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة في أواخر عصر إسماعيل على ازدياد الشعور الثوري آنذاك؛ وبدأت الأصوات ترتفع ضد الاستبداد الخديوي والطبقة التركية الحاكمة. والتفَّت حول الأفغاني كوكبة من أهم رموز الفكر والسياسة في مصر آنذاك، لعل أشهرهم جميعًا الشيخ «محمد عبده»، هذا الشيخ الذي سيصبح بعد ذلك من أهم رموز الإصلاح الديني في مصر، يُضاف إلى ذلك «سعد زغلول» الذي سيصبح زعيم ثورة ١٩١٩.

وأدت محاولات الخديوي إسماعيل لتحويل مصر إلى قطعة من أوربـا؛ والإنفاق والبذخ؛ والتسلط؛ ونمو الوعي القومي- إلى حدوث تطورات عميقة في الوجدان المصري.

إذ حدث تحالف طبيعي بين السياسيين الأحرار، لاسيما أعضاء مجلس شورى النواب وغيرهم، مع ضباط الجيش المنحدرين من أصول مصرية. ونظر الجميع إلى الجيش على أنه القوة الوحيدة القادرة على التغيير، إزاء الاستبداد الخديوي والتدخل الأجنبي.

عهد توفيق وبدايات الثورة

تولى الخديو توفيق الحكم سنة ١٨٧٩ بعد عزل إسماعيل. وبعد توليه بفترة وجيزة أصدر أمرًا بترقية عرابي لرتبة أميرالاي، فقام عرابي بالتوجه إليه بسراي رأس التين ووجَّه له الشكر، فقام توفيق بتعيينه ضمن الياوران الخاص به، كما جعله قائدًا لآلاي المشاة الرابع المتمركز بالعباسية.

وفي تلك الأثناء تشكَّلت وزارة رياض باشا، وضمَّت تلك الوزراة عثمان رفقي باشا وزيرًا للحربية، وكان ذلك من أكبر أسباب اندلاع الثورة العرابية؛ نظرًا لما يحمله رياض باشا من كراهية للضباط المصريين ووقوفه حائلاً دون ترقيتهم، وشاركه تلك الكراهية رفقي باشا. وتجلت تلك الكراهية في القرارات التي اتخذها رفقي باشا من سَنِّ قانون بعدم ترقية الجنود لرتبة ضابط؛ ثم إحالته عبد العال بك حلمي أمير آلاي السودان لديوان

الجهادية كمعاون به، وتعيين جركسي مكانه، وفصَلَ عددًا من الضباط وعيَّن مكانهم جراكسة.

على إثر هذه القرارات المتعسفة ضد المصريين اجتمع عدد من الضباط المتضررين بمنـزل عرابي في يناير ١٨٨١، وأعلنوا ولاءهم لعرابي وجعلوه قائدًا لهم، وأقسموا له على فدائه وفداء الوطن بأرواحهم، فما كان من عرابي إلا أن كتب عريضة تظلُّم لرئيس الوزراء «رياض باشا» يُطالبون فيها بعزل رفقي باشا لتعسفه الواضح ضد المصريين وتمييزه للجراكسة، وقام عرابي وعبد العال حلمي بتسليم تلك العريضة لوزارة الداخلية.

طلب رياض باشا مقابلة الضباط الذين قدموا تلك العريضة، فذهب إليه عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي، فاستفسر منهم عن بعض ما تضمَّنته، ووعَدَهُم بالنظر فيها، ولما مضى أسبوع عاد عرابي وصاحباه لرياض باشا، للاستفسار عمَّا آلت إليه الأمور، فهدَّدَهُم بسوء عاقبة تلك العريضة، لكنهم صمَّموا على المضيّ في سبيل تحقيق مطالبهم، فأحال العريضة لمجلس الوزراء برئاسة الخديو، الذي أمر بوقف الضباط

الثلاثة وإحالتهم لمجلس عسكري، مع تعيين بدل لهم في آلاياتهم، وتم إخطار نظارة الجهادية بتلك الأوامر.

حادثة قصر النيل

بعد صُدور الأوامر بوقف عرابي وزميليه، تم توجيه الدعوة لهم بضرورة الحضور صباح الأول من فبراير ١٨٨١ لديوان الحربية بقصر النيل، للمشاركة في الاحتفال بزفاف شقيقة الخديو، ولكن الضباط الثلاثة توجسوا من تلك الدعوة واحتاطوا لها ورتبوا ما يلزم لنجاتهم حال وقوع أي خديعة.

وعندما ذهبوا لقصر النيل في الموعد المحدد وجدوا الديوان مزدحمًا بالضباط الجراكسة، وانعقد مجلس عسكري لمحاكمة الضباط الثلاثة، وتُلي أمر الخديو بإيقافهم ومحاكمتهم، ونُزعت سيوفهم ووضعوا في السجن بإحدى قاعات قصر النيل، لكن هذا الوضع لم يستمر سوى بضع ساعات جاءت بعدها أرطات

من آلاي الحرس الخديو وأحاطتا بديوان الجهادية، وأسرع بعض الضباط والعساكر لإطلاق سراح عرابي ورفيقيْه، ففَرَّ ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم إلى سراي عابدين للاحتماء بالخديو.

وبعد إطلاق سراح السجناء توجه عرابي إلى مركز آلاي الحرس الخديو بقشلاق عابدين، وأخذ يهدئ من ثورة العساكر والضباط، ويوصيهم بضبط النفس حتى يتم تحقيق مطالبهم؛ ثم أرسل كلمة لوكيل فرنسا السياسي، وطلب منه أن يُخبر جميع وكلاء الدول الأوربية خاصة إنجلترا بأنه حدث خلاف بين الضباط وبين الحكومة ويأمل منهم الوساطة لحل هذه الأزمة. وبعدها قضى الليلة بالقشلاق، في حين ذهب القناصل الأوربيون لعابدين وأشاروا على الخديو بضرورة إجابة مطالب الضباط منعًا للخطر المتوقع.

وبالفعل قام الخديو بإرسال ناظر الأوقاف «محمود سامي باشا البارودي» ورئيس الديوان الخديوي «خيري باشا» للتفاوض مع الضباط، فتقابلوا مع عرابي، وأخبرهم بإصرار الضباط على عزل رفقي باشا، وكان

لهم ما أرادوا، وطلب منهم الخديو اختيار ناظر آخر، فاختاروا البارودي باشا، فصدرت الأوامر بتعيينه مع بقائه في نظارة الأوقاف، وتمت إعادة الضباط الثلاث إلى آلاياتهم، وبدأ البارودي العمل على المساواة بين المصريين وغيرهم، وأخذ يسن القوانين اللازمة لذلك، والعمل على إجابة باقي مطالب الضباط.

وتوالت الأحـداث بعد ذلـك، وتقدم البارودي بالاستقالة من نظارة الجهادية وتعيّن بدلاً منه داود باشا يكن، صهر الخديو، وأخذ الخديو يستميل الضباط ناحيته ويُحكم قبضته على الجيش، وأصدر أوامره بنقل بعض الفرق من الإسكندرية للقاهرة لتكون تحت عينيه. وإزاء كل هذا لم يقف عرابي ساكنًا، بل رأى أنه لابد من القيام بمظاهرة كبرى، وكتب لناظر الجهادية ليخبر الخديو بأن جميع الآلايـات ستحضر لساحة عابدين في العاشرة من صباح يوم التاسع من سبتمبر ١٨٨١ لعرض طلباتها، وكتب بذلك لقناصل الدول الأجنبية وأكّد لهم أنه لا خوف على رعاياهم من تلك المظاهرة لأنها مختصة بشئون البلاد الداخلية.

حادثة عابدين

تعتبر الوقفة الشهيرة لعرابي في ساحة ميدان عابدين تاريخ وبداية الثورة العرابية. وفيما يلي وصف لتلك الوقفة كما ذكرها عرابي في مذكراته:

كان أول من حضر إلى ميدان عابدين الآلاي السواري بقيادة أحمد بك عبد الغفار، ثم حضرتُ بآلاي العباسية ومعي آلاي الطوبجية يقوده إسماعيل بك صبري. وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورطة البيادة- سلاح المشاة- أثناء المسير. وكان ذلك في يوم الجمعة الواقع في ١٥ شوال سنة ١٢٩٨هـ- ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م. وهناك أخبرني بعض الضباط أن آلاي الحرس الخديوي (حكمدارية علي بك فهمي) وزع داخل السراي، وهو على استعداد للدفاع عنها إذا مست الحاجة ومعه كمية وافرة من الجباخانة (الذخيرة). فبعثتُ بالملازم محمد أفندي علي إلى الحكمدار المذكور ليستدعيه إليّ.



الجيش في ساحة عابدين

فلما حضر سألتُه عن سبب وضع العساكر في أبواب السراي ومنافذها من الداخل وما هو القَصد من ذلك؟ فقال: «إن السياسة خداع» فطلبتُ منه أن يجمع آلايه ويأخذ محله في الميدان. فأمر بخروج الآلاي جميعه، وأخذ المحلَّ المعيَّن له في الدائرة. ثم صار ترتيبُ آلاي الطوبجية (المدفعية) والسواري (الفرسان) والبيادة على شكل مربع. وحضر بعد ذلك الآلاي الثاني من قصر النيل... ثم جاء الآلاي الثالث من القلعة... والآلاي السوداني... وأورطة المستحفظين.

عرابي يواجه الخديو

فلما كمل اجتماع الجيش في عابدين كان الميدان غاصًّا بجماهير المتفرجين من الوطنيين والأجانب ونوافذ البيوت المجاورة للسراي وأسطحتها ملأى بالمتفرجين والمتفرجات.

وأما الخديو فإنه لما عاد من العباسية دخل السراي من الباب الشرقي المسمى (باب باريز) وصعد إلى الإيوان

ثم نزل منه ومشى في الميدان وحواليه المستر كوكسن (قنصل انجلترا في الإسكندرية) والجنرال جولد سميث (مراقب الدائرة السَّنية) ونفر من جاويشية المراسلة الخديوية. حتى إذا ما توسط الساحة طلَبَني، فتوجَّهتُ إليه لأعرض مطالب الأمة وكنت راكبًا جوادي وسيفي في يدي ومن خلفي نحو ثلاثين ضابطًا. فلما دنوتُ منه صاح بي أنْ ترجَّل وأغمِدْ سيفك، ففعلت. ثم أقبلتُ عليه، وفي تلك اللحظة أشار عليه المستر كوكسن بأن يُطْلِق غدَّارته عليَّ فالتفَتَ إليه، وقال: «أفلا تنظر إلى مَنْ حولنا من العساكر». ثم صاح بمن خلفي من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعُودوا إلى بلكاتكم. فلم يفعلوا وظلوا وقوفًا خلفي ودم الوطنية يغلي في مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم. ولما وقفت بين يديه مشيرًا بالسلام خاطبني بقوله:

«ما هي أسباب حضوركم بالجيش إلى هنا؟»

فأجبته بقولي: «جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات

الجيش والأمة، وكلها طلبات عادلة».

فقال: «وما هي هذه الطلبات؟»

فقلت: «هي إسقاط الوزارة المستبدَّة، وتأليف مجلس نواب على النسق الأوربي، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها».

فقال: «كلُّ هذه الطلبات لا حَقَّ لكم فيها، وأنا ورثتُ مُلك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيدُ إحساناتنا».

فقلت: «لقد خلقنا الله أحــرارًا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نُورَّث، ولا نُستعبد بعد اليوم!»

وكنت أرى الجنرال جولد سميث كلما سمع جملة من كلامي رجع القهقرى خطوات، ثم يعود إلى محلِّه في الدائرة المحاطة بالضباط والجاويشية. فأشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع إلى السراي زاعمًا أنه يخشى عليه السوء إذا زادت المخاطبة عن ذلك الحد.

كدنا نعزل الخديو

وبعد رجوع الخديو إلى داخل السراي عاد المستر كوكسن ومعه المستر كلفن المراقب المالي الإنجليزي، وخاطبني بالنيابة عن الخديو - كرَسُولٍ مِنْ طرفه - قال:

«إن طلب إسقاط الوزارة وطلب تأليف مجلس النواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش، ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك».

فقلت:

«اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتي المتعلقة بالأهالي لم أعمد إليها إلا لأنهم أقاموني نائبًا عنهم في تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم إخوانهم وأولادهم. فهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعُود على الوطن بالخير والمنفعة. وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر، فهم الأهالي الذين أنابونا عنهم في طلب حقوقهم. واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تُنفَّذ».

فقال القنصل: «علمت من كلامك أنك ترغب في تنفيذ اقتراحاتك بالقوة، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها».

فقلت:

«كيف يكون ذلك ومن ذا الذي يُعارضنا في أحوال داخليتنا. فاعلم أننا سنقاوم من يتصدَّى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا».

فقال القنصل: «وأين هي قوتكم التي ستدافع بها؟»

فقلت: «عند الاقتضاء يمكن أن يحشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم يسمعون قولي ويُلبُّون إشارتي».

فقال القنصل:

«وماذا تفعل إذا لم تُجَبْ إلى ما تطلب؟»

فقلت: «أقول كلمة أخرى».

فقال: «وما هي؟»

فقلت: «لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط»...!



عرابى يسلم الخديوى مطالب الشعب

الخديوي يرضخ لمطالب الأمة

«ثم انقطعت المخابرات ساعة، تَقَرَّرَ في غُضونها إجابة مطالبنا وتنفيذها بالتدريج. ثم أُسْقِطَت الوزارة وطلب إليّ الخديو قبول تعيين حيدر يكن رئيسًا للوزارة الجديدة. فلم أوافق على ذلك؛ لأنه من أقربائه، وعرضتُ تعيين محمد شريف باشا. وبناء على ذلك استدعى شريف باشا من الإسكندرية بالتلغراف.

وبعد صدور أمر الخديو بإجابة مطالبنا توجَّهتُ إليه وشكرتُ له إرضاءه ضمير الأمة، فأقسم بأنه مُرتاح لما فعل، وأنه وافق على تلك الطلبات بنيَّة صافية. فكرَّرْتُ له الشكر والدعاء. ثم أمرتُ فانصرفت الآلايات إلى مراكزها ما عدا آلاي السودان فإنه قضى ليلته في ضيافة آلاي الحرس بقشلاق عابدين».

وبعد أن هدأت الأحوال أصدر شريف باشا أوامره بخروج عرابي ورفاقه من القاهرة وتوزيعهم على أنحاء البلاد، فكان من نصيب عرابي التوجه لمعسكر رأس الوادي بالشرقية، وكان شريف باشا يأمل من وراء ذلك

القضاء على شعبية عرابي ولكنَّ ظنه خاب، إذ زاد تقارب عرابي من الفلاحين من شعبيته، حيث رأوا فيه بطلهم المنتظر لإنصافهم.

ونظرًا لازدياد شعبية عرابي والتفاف الناس حوله وتسليمهم له زمام أمورهم، عرضت الحكومة عليه رتبة اللواء أو وكالة نظارة الجهادية فاختار الوكالة لتستمر زعامتُه للجيش، وصدر الأمر بنقله للقاهرة في يناير ١٨٨٢ مع احتفاظه بقيادة آلايه كما اشترط هو لقبول الوكالة، وفي القاهرة بدأت الناس تتوافد لبيت عرابي وتبايعه بالزعامة.

وخلال تلك الفترة تشكَّلت وزارة جديدة برئاسة البارودي باشا، وتم اختيار عرابي فيها كناظر للجهادية والبحرية مع منحه رتبة باشا، مما يُعَدُّ انتصارًا كبيرًا لعرابي ساهم في ازدياد شهرته وذيوع صيته، ليس في مصر وحدها بل في أوربا كلها.

الاحتلال البريطاني

بدأت نجاحات عرابي تُقْلِق بريطانيا العظمى، حتى أن بعض المؤرخين الأجانب وصفوا المناخ السائد آنذاك بأن «الإنجليزي كان يقرأ في صحف الصباح في بريطانيا أن عرابي أصبح الآن هو السيد في مصر». و«أن تجربة بريطانيا الأليمة في الهند سوف تتكرر مرة أخرى». وردَّدَتْ وسائل الإعلام البريطانية أخبارًا بأن هناك مذبحة تُعَدُّ للإنجليز، وللأجانب بشكلٍ عام في مصر.

وفي مصر تعقدت الأمور بشكلٍ عام، لاسيما مع فقدان الثقة بين القصر الخديوي وعرابي، وترك ذلك تأثيره السيئ على شئون الإدارة وحفظ النظام.

وحدثت المأساة المتوقعة في مدينة الإسكندرية التي كان يسكنها العديد من الأجانب. وفي ظل هذا الاضطراب وضعف النظام العام تحولت حادثة بسيطة مثل شجار بين رجل من جزيرة مالطة مع صبي حمّار مصري إلى

مأساة كبرى وصدام بين الأهالي والأجانب، هذه المأساة التي عُرفت بمذبحة الإسكندرية في عام ١٨٨٢.

وروَّجت وسائل الإعلام الأجنبية لمقولة أن مصر تعيش في حالة فوضى شاملة؛ وأن الأمر لو تُرك لأدَّى إلى حدوث ثورة إسلامية شاملة، شبيهة بما حدث في الهند.

وهكذا اتُّخِذَت الأوامر في لندن لتأديب عرابي، وإعادة حالة الأمن من وجهة النظر البريطانية. وتم توجيه إنذار إلى عرابي بتسليم الإسكندرية خلال ٢٤ ساعة، وإلاَّ قام الأسطول الإنجليزي المُحاصِر لها بتوجيه مدافعه إليها.

وتصف المصادر الإنجليزية الموقف بعد ذلك بقولها: «ولم تلتهم النيران القلاع وحدها فحسب، بل التهمت الإسكندرية ذاتها عندما تهاوت عليها القذائف التي تسبَّب عنها اندلاع الحرائق. وقامت الغوغاء- يقصد الوطنيين- بدورها بإشعال النيران ونهب كل شيء».

وأدى القصف واحتلال بريطانيا للإسكندرية إلى

انضمام الخديوي توفيق إلى حماية بريطانيا، وأيضًا تخوُّف بعض مؤيديه من غضب القصر.

وانسحب عرابي إلى كفر الدوار ليواجه الإنجليز، ولكن الجيش الإنجليزي لجأ إلى الحيلة بالالتفاف ودخول مصر عن طريق قناة السويس، ورفض عرابي أن يلجأ إلى ردم القناة؛ حفاظًا عليها. واستغل الإنجليز ذلك ودخلوا مصر عن طريقها، وهُزِمَ جيشُ عرابي عند التل الكبير، ليدخل الجيش البريطاني سريعًا إلى القاهرة، ويتم إلقاء القبض على عرابي وتقديمه للمحاكمة.

محاكمة عرابي

بعد إلقاء القبض على أحمد عرابي وقادة الثورة أصدر الخديو أمـره في ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢م بتأليف لجنة للتحقيق بالقاهرة، وكانت تسمَّى القومسيون أو اللجنة المخصوصة، وقد تكونت من ١٠ أعضاء برئاسة إسماعيل أيوب باشا وكُلِّفت باستجواب كل من اتُّهِمَ بجريمة العصيان أو التعدي على سلطة الخديو أو إتيان أي عمل فيه إهانة للجناب العالي، سواء كان المتهم فاعلاً أصليًّا أو شريكًا لغيره، وكان من سلطة هذه اللجنة القبض على أي شخص بمجرد أن تُبلِّغ ذلك إلى وزير الداخلية، ولها أن تُقدِّم من ترى أنه مدين، إلى المحكمة العسكرية التي تؤلَّف للحكم في هذه التهم وإيفاد مندوب من قِبَلِها لإقامة الدعوى أمام هذه المحكمة.

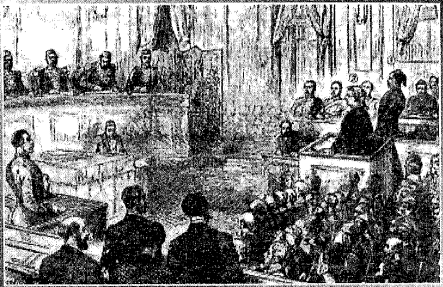
وعقدت هذه اللجنة أولى جلساتها في ١٠ أكتوبر من نفس العام، وبدأت باستجواب أحمد عرابي باشا، واستمر هذا الاستجواب لمدة ثماني جلسات في أيام

متفرقة. وكان من بين التهم التي وجهتها اللجنة لعرابي تدبير مذبحة الإسكندرية؛ عدم مراعاة القانون الحربي الخاص برفع الراية البيضاء؛ وعصيان الخديو.

وعلى مدار جلسات الاستجواب لم تستطع اللجنة إثبات أيٍّ من هذه التهم على عرابي، وتدل محاضر تلك الجلسات- التي تقترب من المائتي صفحة- على مدى صلابة عرابي، فهو لم يتنصَّل من أي حادث، ولم يكذب، فضلاً عن حضور ذهنه وقوة بديهته ومتانة حُجَّته وشجاعة قلبه.

وقد تم استجواب عرابي دون وجود مُحامٍ معه، إذ إن القومسيون حدَّد ١٨ محاميًا مصريًّا ليختار منهم عرابي واحدًا للدفاع عنه، فاختار «عبد الكريم ناجي» المحامي، لكن هذا المحامي رفض الدفاع عن عرابي وقال:

«إنه إذا كان اختيار عرابي له بشأن مسألة العصيان وما أجراه من الحرب فهو لا يتوكل عنه، لأنه لا يجد وسائل للمدافعة عن هذه المسألة المعلومة المشهورة، أما إن كان لقضية أخرى فيقبل».



محاكمة عرابى

وكان موقف هذا المحامي، المصري، خوفًا من بطش الخديو به إذا دافع عن عرابي، وبناءً على ذلك قام المستشرق ولفرد بلنت بتعيين المستر برودلي المحامي الإنجليزي للدفاع عن عرابي، على أن يتكفَّل بلنت وأصدقاؤه بنفقات هذا الدفاع.

وكان من ضمن ما اعتمد عليه برودلي في دفاعه عن عرابي ما كتبه له أحمد بك رفعت والشيخ محمد عبده، بما معناه أن الأمة كلها أعلنت تأييدها لعرابي في الدفاع عن الوطن، وقررت عدم إطاعة الخديو توفيق المُنحاز للأجانب، وبناءً على ذلك الإجماع فإن أي عمل يُنسب إلى عرابي ورفاقه بعد هذا التاريخ هو عمل مشروع لأنه ناتج عن إرادة الأمة كلها.

وبعد تلك الجلسات والمدافعات وبعد استجواب كافة المتهمين من قادة الثورة، تم توجيه تهمة العصيان لهم، وبناء على ذلك تمت إحالة أوراق القضية إلى المحكمة العسكرية المخصوصة.

وقبل صدور الحكم على عرابي ورفاقه أشار عليه محاميه «برودلي»، بناءً على اتفاق بينه وبين اللورد

دوفرين، بأن يعترف بعصيان الخديو، وفي المقابل يتم نفيه «نفيًا مُكرمًا» ويترتب له معاش سنوي من الحكومة المصرية قدره ألفي جنيه مصري مدى الحياة ويرثه من بعده أبناؤه مع احتفاظه بكافة ممتلكاته، وأن هذا الاتفاق يشمل أيضًا زملاءه السبعة مع ترتيب ألف وخمسمائة جنيه مصري كراتب سنوي لكل واحد منهم، وأن الحكومة الإنجليزية وافقت على هذا الاتفاق.

وبالفعل وافق عرابي ورفاقه على هذه الشروط، واعترفوا بعصيان الخديو، مع إقرارهم بالامتثال لحكم المحكمة والالتزام بالمكان الذي تحدده لهم الحكومة، وكتبوا بذلك اعترافًا رسميًّا.

وفي صباح ٣ ديسمبر ١٨٨٢م عُقدت جلسة المحكمة العسكرية بإحدى قاعات مبنى الدائرة السنية، التي امتلأت بالعسكريين والمدنيين الأجانب ومراسلي الصحف الأجنبية. وبعد إحضار المتهمين من زعماء الثورة وجلوسهم في المكان المخصص لهم بالقاعة، وحضور أعضاء هيئة المحكمة من القضاة، قام رؤوف

باشا رئيس المحكمة العسكرية بقراءة ورقة كان نصها:

«أحمد عرابي باشا... أنت متهم الآن أمامنا بناءً على قرار لجنة التحقيق بجريمة عصيان سمو الخديو، مُخالفًا بذلك المادة ٩٦ من القانون العسكري العثماني والمادة ٥٩ من قانون العقوبات العثماني، فهل أنت مذنب أم غير مذنب؟!»

فأجاب عرابي: «إن محامِيَّ سوف يردُّ عني».

فقام برودلي وقرأ ترجمة فرنسية لاعتراف عرابي وأبرز الأصل العربي وعليه ختم عرابي وقرأه كاتب الجلسة، فنظر رؤوف باشا لعرابي متسائلاً، فأومأ عرابي برأسه أنه موافق على ما سمعه، فأعلن رؤف باشا تأجيل الجلسة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر.

وعند انعقاد الجلسة قام رئيس الجلسة بتلاوة حكم الإعدام على عرابي، ثم جلس دقيقة وقام يتلو أمر الخديو باستبدال الحكم بالنفيَ المؤبد، فأشار عرابي بالرضى والقبول مع الشكر. وتزاحَمَ مراسلو الصحف على عرابي لتهنئته، وقدمت له بعض السيدات

الأوربيات ممن حضرن الجلسة باقات الزهور فقبلها، وعن تلك اللحظة يقول عرابي في مذكراته:

«... فقامت السيدات الأوربيات يتسابقن في نثر الورود والأزهار عليَّ مهنئات بشفقة وحنان، لا أزال أشكرهن وأذكر عطفهن عليَّ بالثناء الجميل».

عرابي في المنفى

بعد صدور حكم النفي على عرابي باثنى عشر يومًا في يوم ١٤ ديسمبر ١٨٨٢م صدر أمرٌ من الخديو بسلب أملاك عرابي من أطيان وعقار وغيرها، ثم صدر أمرٌ ثانٍ في ٢١ ديسمبر من نفس العام بتجريد عرابي ورفاقه السبعة قادة الثورة المحكوم عليهم بالنفي من جميع الرتب والألقاب وأوسمة الشرف، فرفضوا تسليمها لمندوب الحكومة وسلموها لمستر برودلي للدفاع عن حقوقهم فيها.

وفي ٢٧ ديسمبر سافر عرابي ورفاقه مع من أراد مرافقتهم من الأهل والخدم في قطار مخصوص من قطارات السكة الحديد حتى وصلوا مدينة السويس، ومنها استقلوا الباخرة «مريوط» الإنجليزية التي تم إعدادُها لسفرهم إلى منفاهم في جزيرة سيلان.

وصل عرابي وصحبه لميناء كولومبو عاصمة جزيرة سيلان في ٩ يناير ١٨٨٣م واستقبلهم وكيل حكومة

سيلان، وأخبرهم بما أعدته الحكومة لهم من منازل وأدوات لازمة لمعيشتهم بالجزيرة، مع تدبير المؤن اللازمة لهم لمدة ثلاثة أشهر على سبيل الضيافة على حساب الحكومة المصرية.

وعندما خرج عرابي ومن معه من الباخرة وجدوا رصيف الميناء مزدحمًا بالمسلمين من أهل سيلان وما يجاورها، وكذلك أعيان الطوائف الدينية المختلفة بالجزيرة وهم يشيرون له ولرفاقه بالتحية والاحترام.

وبعدها توجَّه عرابي ورفاقُه للمنازل التي أعدَّتها حكومة سيلان لهم بكولومبو، ونزل عرابي مع أهله ببيتٍ مستقلّ، وأقام معه طلبة باشا عصمت وعبد العال باشاً حلمي، لأنهما تركا عائلتيهما بمصر، وكذلك سكن محمود باشا فهمي مع أسرته بمنْزل وأقام معه محمود باشا سامي لأنه ترك عائلته بمصر، أما عليّ باشا فهمي ويعقوب باشا سامي فقد استقل كلٌّ منهما بمنْزل لوجود عائلتيهما معهما.

وفي بداية إقامة عرابي ورفاقه بالجزيرة حرص الأهالي على إقامة المآدب احتفالاً بهم، وردَّ عرابي وصحبه



أحمد عرابى فى منفاه

على هذا الترحاب بإقامة مأدبة كبيرة لأعيان الجزيرة من مسلمين وغيرهم، تعبيرًا عن شكرهم وامتنانهم بحسن الضيافة.

وكان عرابي يقضي وقته مع رفاقه في القراءة والكتابة والتزاور مع حكام الجزيرة وأعيانها، فضلاً عن تعلم اللغة الإنجليزية.

وفي أثناء إقامة عرابي في كولومبو زاره عدد من الشخصيات المهمة، وفي مقدمتهم صديقه ولفرد بلنت وزوجته، وأمضوا معه ٢٢ يومًا بالجزيرة؛ كما زاره اللورد روزبري واللورد ماكدونالد الإنجليزيان، واستطلعا رأيه في حركة المهدي بالسودان وسُبل مقاومتها؛ وفي عام ١٨٨٤م زاره مهراجا (حاكم) سلطنة لاهور.

ومضت السنوات رتيبة ومتشابهة على عرابي في منفاه لا يُبعد عنه مللها سوى المودَّة التي لاقاها من أهالي الجزيرة وزياراتهم المتبادلة معه ومع رفاقه.

وبعد ست سنوات من وصوله سيلان توفي لعرابي

ابن في الثالثة من عمره بعد إصابته بالدفتريا، مما أحزنه حزنًا شديدًا، وبعدها بثلاثة أعوام توفى رفيقه عبد العال باشا حلمي في ١٨٩١م، مما كان له أسوأ الأثر في نفس عرابي ورفاقه، ورأوا في وفاته صورة لما قد يئول إليه مصيرهم في المنفى.

وفي تلك الأثناء زار الجزيرة السير توماس لبتن صديق عرابي وصاحب مزارع الشاي المعروفة باسْمه، فلما وجد عرابي في حالة صحية ومزاجية سيئة من أثر المناخ غير الصحي في كولومبو، دعاه ليقيم في مزرعته بدمبتنا؛ لنقاء جوِّها ليروِّح عن نفسه، وتكفل بمصاريفه هو وعلي باشا فهمي، وبالفعل أقام عرابي وصديقه شهرًا في تلك المزرعة مما كان له أثر كبير في تحسن صحتهما.

ومن تلك المزرعة أرسل عرابي لصديقه أحمد باشا المنشاوي في مصر تقاوي لزراعة عشرين فدانًا بالبُنّ اليمني، كما أرسل تقاوي لأجود أنواع المانجو والموز الأحمر والأصفر والحبهان والقرنفل والبانيليا، أملاً منه في نشرها بمصر.

وبعد ذلك زار عرابي وصديقه مزرعة أخرى من مزارع لبتن وقضى بها شهرًا آخر، ثم عاد لدمبتنا فقضى بها ٤٠ يومًا ثم عادا إلى كولومبو.

وفي عام ١٨٩٢م انتقل عرابي لمدينة كندي العاصمة القديمة لجزيرة سيلان، لقرب مناخها من مناخ مصر، وكان قد سبقه إليها جميع رفاقه ولم يبق بكولومبو سوى محمود باشا فهمي لإصابته بشلل نصفي، وحينما جاء لزيارة أصدقائه بكندى لم يمهله القدر وتوفى ودفن بها في قرافة «منيرة كندي».

وفي عام ١٩٠٠م صدر تصريح لطلبة باشا بالعودة لمصر لاعتلال صحته، ثم عاد بعده محمود باشا سامي لفقدانه البصر، وفي نفس العام توفى يعقوب سامي ودفن مع محمود فهمي بكندي.

وفي ١٩٠١م زار مدينة كندي ولي عهد الحكومة الإنجليزية وقابله عرابي لمدة ربع ساعة يصفها عرابي في مذكراته بقوله:

«... فلقيتُ منه كرمًا وحلمًا وكمالاً وآنستُ رقة ولطفًا، فجلستُ في حضرته نحو ربع ساعة، وسألني

فيها عن صحتي وحالتي، فعرضتُ على سموه أني أعتبر تشريفه للجزيرة فكاكًا لنا من الأسر، فوعدني بأنه سيسعى لدى الخديو في تحقيق ذلك».

وبالفعل صدر أمر الخديو بالعفو عن عرابي وعودته لمصر، فغادر الجزيرة في٢١ سبتمبر ١٩٠١م على ظهر الباخرة «البرنس هنري» الألمانية، ووصل إلى ميناء السويس يوم ٢٩ سبتمبر بعد ١٩ عامًا من مغادرته لمصر.

المنفى في الوطن

عند وصول عرابي لميناء السويس كتب لمحافظ السويس «مصطفى بك ماهر»، أحد تلاميذ النديم، فلم يُرِدّ عليه، وأَعْرَضَ عنه، فأرسل لفخري باشا قائمقام الخديو بَرْقيّة، فأمر بانتقاله للقاهرة على نفقة الحكومة. فكان موقف محافظ السويس منه هو أول ما لاقاه من نكران، وزاد على ذلك ما كتبتْهُ الصحف عنه ما بين مديح وهجاء وتشكيك في وطنيته، وفوجئ بعدم تقدير دوره وتجنُّب كبار موظفي الدولة زيارته، كما رفضت الحكومة المصرية تعيين أبنائه بوظائفها. ولم يتبقَّ لعرابي بعد عودته سوى دخلٍ سنوى بسيط لا يزيد عن ستمائة جنيه استرليني، لم يكن ليكفي نفقاته هو وعائلته وخدمه، فلم يكن أمامه سوى محاولة إستعادة أملاكه المسلوبة، لكن محاولاته والتماساته ذهبت أدراج الرياح، وضاعت حقوقُه بين مماطلة الحكومة المصرية وزَعْم الحكومة البريطانية عدم اختصاصها بهذه

المسألة. وعن ذلك كتب عرابي في مذكراته قائلاً:

«وهكذا تبين أن الحكومة المصرية لا تريد أن تسمع لصوت الحق ولا ترد على من يخاطبها، أو هي لا تقدر على عمل يخالف إرادة الإنجليز. كما تبين أن الحكومة الإنجليزية لا تريد أن تتوسط في إقامة العدل ودحض الظلم وردِّ أملاكي المنهوبة بقوة الاحتلال، وتحيل شكواي إلى حكومة الخديو التي لا تقدر على عمل ما بغير أمر الإنجليز. ولذلك تركتُ لأولادي وأحفادي من بعدي، ولذريتي جيلاً بعد جيل، الحق في المطالبة بحقوقي وأملاكي المنهوبة من الحكومة المصرية ومن المجلس النيابي المصري، حين تستردُّ الأمة حريتها واستقلالها ومجلسها النيابي. وإني أثق بأن أمتي المصرية الكريمة لا تنساني، ولا تترك أولادي حين يأتي اليوم الذي تعرف فيه حقيقة أعمالي الوطنية الواجبة على كل وطني حر».

وهكذا استمر عرابي بعد عودته لمصر يتزاور مع أصدقائه ويتذكرون ماضيهم ويتألمون لما آلَ إليه الحالُ في مصر بعد الاحتلال. وكان عرابي يتألم حين يسمع ثناء

الناس عليه وعلى حركته القومية، كما كان يشتدُّ ألمه حين يعلم أن الأجيال الجديدة لا تعلم شيئًا عن تلك الحركة سوى ما بثه الاحتلال من صور رديئة عن عرابي وما أشاعه في البلاد من فتن وخراب.

وفي تلك الأثناء شرع عرابي في استكمال كتابة مذكراته حتى فرغ منها في يوليو ١٩١٠م.

وكان عرابي نشيطًا كثير التردد على المساجد وقراءة القرآن، ولم يُقْعِدْهُ سوى مرض السرطان الذي أصابه في المثانة. وفي ٢٠ سبتمبر ١٩١١م اشتدت عليه وطأة المرض وهو بمنزله بالمنيرة، فأوصى أبناءه بنشر مذكراته مهما صادفهم من عقبات لتصل للناس الحقيقة ويعلموا مدى إخلاصه لوطنه، وأوصاهم كذلك بعدم التفريط في المطالبة بأملاكه حتى يستردوها. ثم دخل بعد ذلك في غيبوبة لم يفق منها حتى وافته المنية في ٢٢ سبتمبر ١٩١١م، ولم يشارك في جنازته أي مسئول رسمي، بل كانت جنازته جنازة شعبية مهيبة أحاط فيها الآلاف من المصريين بنعشه، وساروا في صمت وخشوع من منْزله بالمنيرة حتى مدفنه بالإمام الشافعي.

ثورة يوليو تستلهم روح الثورة العرابية

أعادت ثورة يوليو روح الثورة العرابية وذكرى عرابي، ويرى العديد من المؤرخين وجود العديد من الروابط والمؤثرات وأوجه التشابه بين الثورتين.

وربما يتضح ذلك من خلال استعراض كلمة الرئيس محمد نجيب أول رئيس لمجلس قيادة الثورة وأول رئيس للجمهورية عند تقديمه لمذكرات أحمد عرابي.

عرابي بقلم اللواء محمد نجيب

تصفحتُ هذه المذكرات التي كتبها القائد المصري البطل أحمد عرابي «ليُبيِّن للناس حقيقة النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية تمحيصًا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة».

وما إن سرتُ في قراءتها قليلاً، حتى استوقفتني أهمية البيانات الخطيرة الدقيقة التي سجّلها وفصّلها،

فأعدتُ ما قرأت، مثنى وثلاث ورباع، شاعرًا في كل مرة من هذه المرات بلذة الاستذكار، ولذة الوقوف على تلك المفاخر المصرية الوطنية الحقة من بطولة وشهامة وتضحية وإيثار. وهكذا كان شأني حتى أتيتُ على آخر هذه المذكرات القيِّمة، التي جَمَعَتْ فأوْعَتْ، وألقت الضوء على حقائق تلك الحقبة الخطيرة من تاريخنا الحديث، فأظهرتْ في صدق وإخلاص ويقين، وكان فيها لذلك هدى للمهتدين، وعبرة للمعتبرين.

وإني إذ اترحم على الزعيم البطل صاحب هذه المذكرات، مُشيدًا بما أفاد به التاريخ المصري، بالكشف عن أسرار لم تكن معروفة فيه، وبمواقفه هو وصحبه الذين رفعوا رأس الكرامة الوطنية، لأرجو أن تتجدد بها دائمًا ذكرى ذلك الجهاد الوطني المجيد، لينتفع بها الجيل الحاضر والأجيال المقبلة، ولتتأكد في نفوس المواطنين جميعًا تلك المُثل العليا التي ضربها عرابي في حركته الوطنية التاريخية العظيمة، للرجولة الحقة والشهامة الموروثة، وإباء الظلم والضيم، والاعتزاز

بمصريته وقوميته، مما جعله منارًا يُهتدى به، ورائدًا يُقتفَى أثره ويتمثل فيه بقول الشاعر العربي القديم:

إذا ما الملكُ سامَ الناسَ خسفًا   أبيْنا أن نقـرَّ الظلم فينا

على أن مذكرات عرابي هذه ليست درسًا من دروس الوطنية الخالدة فحسب، وليست فائدتُها مقصورةً على ما فيها من كشف لحقائق التاريخ التي كانت مجهولة، وإماطة اللثام عن أسرار كانت خافية. فالواقع أنها إلى هذا كله قد سجَّلت فيما سجلته حادثًا تاريخيًا جليلاً من أجَلِّ حوادث الكفاح والتضحية والبذل والفداء في سبيل حرية الوطن وكرامته وسعادته. وهي لذلك يجب أن يستوعبها المواطنون عامةً، والشبان خاصةً، ليترسَّموا خطاه في خدمة البلاد، ولينسجوا على منواله في الإقدام والإباء والإخلاص، وبذلك يؤتي كفاحهم أبرك الثمرات وأينعها بإذن الله.

إن عرابي زعيم تلك الثورة أو النهضة المصرية، يمثل بسيرته وأعماله التي تفصِّلها هذه المذكرات مرحلة

مجيدة من أهم المراحل التي مرت بها بلادنا في العصر الحديث، فهو وطني كامل الوطنية، وهو مناضل لا تنقصه الجرأة ولا الشجاعة، ثم هو إلى هذا وذاك جندي باسل يعرف حقَّ بلاده عليه، ويعرف متى وكيف يُـؤدِّي واجبه كاملاً غير منقوص، لكي يرفع لواء الكرامة الوطنية، ولكي يدفع عن الوطن وأهليه عادية المستعمرين ومن يلوذُ بهم من الطغاة المستبدِّين ومن النفعيين الفاسدين.

وليس من شك في أن التاريخ قد حفل بكثير من قصص الكفاح الوطني التي تشبه قصة عرابي القائد المصري، والزعيم الوطني المخلص، بل ليس من شك في أن التاريخ المصري نفسه قد سجَّل- فيما سجَّل- صفحات رائعة مشرقة لبطولة رجالات صدقوا ما عاهدوا الله والوطن عليه، فلم يدَّخروا جهدًا في سبيل استخلاص حرية الوطن وكرامته من بين براثن الغاصبين والمعتدين، ظاهرين ومستترين.

ولقد أثبت عرابي بما اشتملت عليه مذكراته هذه أنه جدير بأن يخلد اسمه في مقدمة أسماء هؤلاء الأبطال، وحق له أن تكرِّم الأمة كلها ذكراه، بما جاهد في سبيلها، وبما ضحَّى لرفعة شأنها، ولإعلاء كلمتها على كلمة الطغاة والمستبدِّين.

المحتوى

(مهرجان القراءة للجميع)

من إصدارات المجلة
بالتعاون مع المجلس القومي للشباب
(قمم مصرية)

- توفيق الحكيم، عصفور الشرق المغرِّد- محمد رجب
- زكي نجيب محمود، نموذجًا للعقل والتنوير- د. عصام زكريا جميل
- صلاح عبد الصبور، ضمير الشعر المصري- عبد الناصر عيسوي
- سهير القلماوي، سيرة ثقافية- عبد التواب يوسف
- محمود مختار، مَثَّال مصر- صلاح بيصار
- علي مبارك، رائد التحديث في مصر- محمد السيد عيد
- عبد الله النديم وحلم الوطن- علي ماهر عيد
- رفاعة الطهطاوي، رائد النهضة- محمد الشافعي
- محمد عبده، رائد الإصلاح والتنوير- د. عوض الغباري
- الليث بن سعد، الفقيه المصري- عبد الناصر عيسوي
- أحمد عرابي، زعيم الكرامة الوطنية- د. محمد عفيفي

يصدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
المجلس القومى للشباب



ها نحن نواصل إصدار هديتنا لقراء مجلة الإذاعة والتليفزيون في صورة كتاب. يشاركنا في ذلك المجلس القومي للشباب، بالسلسلة الثقافية لطلائع مصر، هدية من المجلس لقراء المجلة. وهذا تعبير منا جميعًا عن إيماننا العميق بالحملة التي ترعاها السيدة الفاضلة سوزان مبارك، وبما تقومُ به الحملة القومية للقراءة للجميع من تأسيس أبنائنا والنهوض بهم في كل نواحي الحياة، ودعم كل ما هو ثقافي وحضاريّ من أجل النهوض بالإنسان، حتى أصبحنا نُحس ونشهد بأنَّ القراءة للحياة.

الإذاعة التليفزيون